الباب الأول

نشأة الفلسفة النظرية

(القرنان السادس والخامس قبل الميلاد)

٧ — تمهيد :

ا — إن أول اتجاه الفكر إنما يكون إلى الخارج يطلب حقيقة الأشياء . فإما أن يستوقفه التغير ، وهو بالفعل أعم وأخطر ظاهرة فى الطبيعة ، سواء أكان عرضياً ، أى انقلاب الشىء من حال إلى حال ، أو جوهريا ، أى تحول الشىء إلى شىء آخر ، كتحول الغذاء إلى جسم الحى ، والخشب إلى الرماد ، فيدرك أن الأجسام على اختلافها مصنوعة من مادة أولى هى محل التغيرات ، فيبحث عن هذه المادة التى تتكون منها الأجسام ، ثم تعود إليها . وإما أن يُعنى بما فى تركيب الأجسام من نظام ، وفى أفعالها من اطراد ، ويعلم أن النظام فى العدد ، فيتصور العالم تصوراً رياضيا . وإما أن يرى فى ذات فكرة التغير تناقضا ، إذ يبدو له التغير صيرورة من لا شىء إلى شىء ، ومن شىء إلى لا شىء ، فينكره ويقول بالوجود الثابت . وتلك هى الوجهات الثلاث التى يمكن تبينها فى الوجود ، وهى الوجهة الطبيعية ، والوجهة الرياضية ، والوجهة الميتافيزيقية .

ب — ومن الغريب أن قد وفق اليونان إلى الكشف عن هذه الوجهات الثلاث لأول اشتغالهم بالفلسفة ، فظهرت ثلاث مدارس متعاصرة لكل منها مزاج ومذهب . ظهرت مدرسة فى أيونية عالجت العلم الطبيعى : ثلاثة من رجالها نشأوا فى ملطية ، وهم طاليس وأنكسيمندريس وأنكسيمانس ، ورابع نشأ فى أفسوس ، هو هرقليطُس . ولكن الفرس أغاروا على أيونية وأخضعوها ، فانتقلت الحياة العقلية إلى إيطاليا الجنوبية وصقلية ، فنبغ هناك فيثاغوراس صاحب الوجهة الرياضية ، وظهرت المدرسة الإيلية القائلة بالوجود الثابت . ثم نشأ فلاسفة أخذوا من كل وجهة بطرف وحاولوا التوفيق بينها ، وهم انبادوقليس وديموقريطس وأنكساغوراس .

حـ — ويذكر لكل من هؤلاء أو لمعظمهم كتاب بعنوان « فى الطبيعة » أى فى

الجوهر الأول الثابت تحت التغير والتحول . وليس يعنى هذا أن أصحابها كانوا يسمونها بهذا الاسم ، فإن المؤلفات النثرية القديمة لم تكن تعنون ، وإنما كان الكاتب يذكر اسمه ويشير إلى موضوع كتابه فى العبارة الأولى ، وقد قلنا إن موضوعهم كان تفسير الوجود . ضاعت تلك الكتب جميعاً ؛ وظلت أخبار أولئك الفلاسفة ناقصة ، وتواريخهم تقريبية . ونحن نعرفهم مما يرويه عنهم أفلاطون وأرسطو[١] ، ومن تراجم دونت فى عهد متأخر ، واختلط فيها الخيال بالحقيقة[٢] ، ومن عبارات لهم جمعت من مختلف الكتاب القدماء .

---

(١) جرت العادة فى الإحالة إلى أقوال أفلاطون باعتماد طبعة Henri Esticnne (ليون ١٥٧٨) وصفحاتها مقسمة خمسة أقسام يدل عليها بالأحرف a b c d e لتسهيل الرجوع إلى الموضع المقصود . ومعظم الطبعات الجزئية والترجمات الحديثة تشير فى هوامشها إلى هاته الصفحات وأقسامها . فرأينا أن نتبع هذا الاصطلاح مع استبدال الأحرف الأبجدية ا ب ج د ه بالأحرف الأفرنجية فنكتب مثلا : الجمهورية ص ٤٤٠ (ب) فى مقابل : Rep. 440 b .

أما أقوال أرسطو فيحال فيها إلى طبعة أكاديمية برلين ، وصفحاتها مقسمة إلى عامودين يدل عليهما بحرف a,b ؛ وفى كل عامود السطور مرقومة ، فيذكر مثلا De Anima 429 b 10-24 ونكتب نحن كتاب النفس ص ٤٢٩ ع ب س ١٠ — ٢٤ أى ص ٤٢٩ عامود ب سطر ١٠ — ٢٤ . أو نكتفى بذكر اسم الكتاب ورقم المقالة والفصل ، فإن كتبه مقسمة إلى مقالات وهذه إلى فصول .

(٢) أشهرها كتاب ديوجانس اللايرتى فى « حياة الفلاسفة » الذى يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد

الفصل الأول

الأيونيون

أو نشأة العلم الطبيعي

٨ — طاليس (٦٢٤ — ٥٤٦) :

ا — هو أحد الحكماء السبعة . انفرد بالعناية بالعلم ، وكانوا يعنون بالسياسة والأخلاق . جال أنحاء الشرق ، وتبحر فى العلوم . ومما يذكر عنه أنه عمل كمهندس حربى فى خدمة قارون (آخر ملوك ليديا فى آسيا الصغرى) وبرهن على أن الزوايا المرسومة فى نصف الدائرة فهى قائمة ، وكان يحسب من فوق برج أبعاد السفن فى البحر ، وأنبأ بكسوف الشمس الكلى الذى وقع فى ٢٨ مايو سنة ٥٨٥ ، ووضع تقويماً للملاحين من أهل وطنه ضمنه إرشادات فلكية وجوية ، منها أن الدب الأصغر أدق الكواكب دلالة على الشمال . وجاء مصر فأخذ علم المساحة ، وشغل بمسألة فيضان النيل ، ودل أساتذته المصريين على طريقة لقياس ارتفاع الأهرام ، وكانوا قد تعبوا فى البحث عنها ، فنبههم إلى أن ظل الشيء يساوى ارتفاعه فى وقت من النهار ، فطول ظل الأهرام فى ذلك الوقت هو مقدار ارتفاعها ، وأن النسبة تبقى محفوظة بين طول الظل وارتفاع الشيء فى أى وقت .

ب — أما أثره فى الفلسفة فهو أنه وضع المسألة الطبيعية وضعاً نظرياً بعد محاولات الشعراء واللاهوتيين ، فشق للفلسفة طريقها ، فبدأت باسمه . قال إن الماء هو المادة الأولى والجوهر الأوحد الذى تتكون منه الأشياء . وكان هذا القول مألوفاً عند الأقدمين . وقد صرت بنا عبارة هوميروس أن أقيانوس المصدر الأول للأشياء ، ومن قبل قالت أسطورة بابلية : « فى البدء قبل أن تسمى السماء وأن يعرف للأرض اسم كان المحيط وكان البحر » — وجاء فى قصة مصرية : « فى البدء كان المحيط المظلم أو الماء الأول حيث كان أتون وحده الإله الأول صانع الآلهة والبشر والأشياء » — وجاء فى التوراة : « فى البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خاوية خالية ، وعلى وجه الغمر ظلام ، وروح الله يرف على وجه المياه » — ويعادل هذه الأقوال قول علمائنا الآن : إن تكوين العالم بدأ منذ أن تحولت

الأبخرة الأولى ماء . ولكن طاليس يمتاز بأنه دعم رأيه بالدليل فقال[١] : إن النبات والحيوان يتغذيان بالرطوبة ، ومبدأ الرطوبة الماء ، فما منه يغتذى الشيء فهو يتكون منه بالضرورة . ثم إن النبات والحيوان يولدان من الرطوبة ، فإن الجراثيم الحية رطبة ، وما منه يولد الشيء فهو مكون منه . بل إن التراب يتكون من الماء ويطغى عليه شيئاً فشيئاً ، كما يشاهد فى الدلتا المصرية وفى أنهر أيونية حيث يتراكم الطمى عاماً بعد عام ؛ وما يشاهد فى هذه الأحوال الجزئية ينطبق على الأرض بالإجمال ، فإنها خرجت من الماء وصارت قرصاً طافياً على وجهه كجزيرة كبرى فى بحر عظيم ، وهى تستمد من هذا المحيط اللامتناهى العناصر الغازية التى تفتقر إليها : فالماء أصل الأشياء .

ح — وثمت قول آخر يذكره له أرسطو هو « إن العالم حافل بالآلهة[٢] » ويغلب أن يكون معناه أنه حافل بالنفوس ، أى أن كل فعل إنما هو من النفس ، وأن النفس منبثة فى العالم أجمع ، فتكون المادة حية ، ويكون الماء المؤلفة منه الأشياء حاصلا على قوة حيوية حاضرة أفيه دائماً وإن لم تظهر دائماً ؛ ويشترك فى هذا الرأى الأيونيون الذين نتكلم عنهم ، لذلك دعوا « هيلوزويست » اى أصحاب المادة الحية . ومما يؤيد هذا التأويل عبارة منسوبة لطاليس ويوردها أرسطو بتحفظ[٣] هى أن للحجر المغناطيسى نفساً لأنه يحرك الحديد ، فإنها تدل على أن مبدأ الفعل والحركة عنده النفس ، ولما كانت الحركة ظاهرة كلية كانت النفس كلية كذلك .

ى — هذا كل ما نعلم عن طاليس ، ويتبين منه أنه تمثل العلم البابلى والمصرى وعمل على تقدمه ، ولكنه استبقاه تجريبياً ، حتى إنباؤه بالكسوف لم يكن صادراً عن أساس نظرى ، من حيث إنه كان يعتقد أن الأرض قرص مسطح ، وأنه على ما يذكر هيرودوت إنما أنبأ بكسوف تلك السنة فقط ، ومن غير أن يعلم إن كان هذا الكسوف يرى فى بقعة من الأرض معينة ؛ فقد يكون اهتدى إليه اتفاقاً ، وقد يكون اعتمد على جداول البابليين . أما فلسفته فهى على العكس شىء جديد . فبدل أن يفسر تنوع الكائنات بتشخيص القوى الطبيعية والرواية عن الآلهة ، نظر إليها على أنها أشياء معروفة محسوسة ، وحاول الاستقراء والبرهنة . فهذا النظر وهذا المنهج هما الربح الذى عاد على الفلسفة . أما قوله بالماء فقد كان آخر صدى

(١) ما بعد الطبيعة لأرسطو م ١ ف ٣ ص ٩٨٣ ع ب س ٢٠ وما بعده .
(٢) كتاب النفس م ١ ف ٥ ص ٤١١ ع ١ س ٨ — ١٠ .
(٣) » » م ١ ف ٢ ص ٤٠٥ ع ١ س ١٩ — ٢١ .

للتقليد القديم ، ولم يتابعه فيه خلفاؤه ولكنهم فهموا أن وجهته ومنهجه أمران لهما قيمتهما الخاصة ، وأنهما مستقلان عن كل قول معين .

٩ — انكسيمندريس (٦١٠ — ٥٤٧) :

ا — هو تلميذ طاليس فيما يرجح ، وخليفته فى ملطية . يذكرون عن مشاركته الشخصية فى تقدم العلم أموراً كثيرة منها لم يثبت : فيقولون مثلا إنه اخترع المزولة ، والأرجح أنه أخذها عن البابليين إذ قد كانت معروفة عندهم ؛ ويقال إنه صنع كرة فلكية ، ووضع خريطة أرضية استفاداً إلى المعلومات التى كان يأتى بها اليونان إلى ملطية من أنحاء العالم المعروف وقتذاك ، فرسم اليبس يحيط ببحر ويحيط به بحر .

ب — ولكن المهم عندنا نظريته فى العالم . فقد رأى أن الماء لا يصلح لأن يكون مبدأ أول ، وذلك لأنه استحالة الجامد (البارد) إلى سائل بالحرارة « فالحار والبارد » سابقان عليه ؛ ولأن المبدأ الأول لا يمكن أن يكون معيناً ، وإلا لم نفهم أن أشياء متمايزة تتركب منه . فدعا المادة الأولى باللامتناهى وقال إنها لا متناهية بمعنيين : من حيث الكيف أى لا معينة ، ومن حيث الكم أى لا محدودة : هى مزيج من الأضداد جميعاً ، كالحار والبارد واليابس والرطب وغيرها ، إلا أن هذه الأضداد كانت فى البدء مختلطة متعادلة غير موجودة بالفعل من حيث هى كذلك ، ثم انفصلت بحركة المادة ، وما زالت الحركة تفصل بعضها من بعض ، وتجمع بعضها مع بعض ، بمقادير متفاوتة ، حتى تألفت بهذا الاجتماع والانفصال الأجسام الطبيعية على اختلافها . وأول ما انفصل « الحار والبارد » فتصاعد البخار بفعل الحار ، وكان من هذا البخار الهواء ، أما الراسب فيبس بالتدريج ، فكان منه البحر ثم الأرض . وتكوّن الحار كرة نارية حول الهواء كما تتكون القشرة حول الشجرة ، وتمزقت هذه الكرة النارية فتناثرت أجزاؤها ودخلت أسطوانات هوائية مبطنة هى الكواكب تشتعل فيها النار وتبدو لنا من فوهاتها ؛ فكل ما نراه من وجوه القمر ، ومن كسوف وخسوف ، ناشىء إما من انسداد الفوهات انسداداً كليا أو جزئياً ، أو مما للأسطوانات من حركة تجعل الفوهات تبدو حيناً وتغيب حيناً آخر . والأرض جسم أسطوانى كذلك ، نسبة ارتفاعه إلى عرضه كنسبة ١ : ٣ ، ونحن نشغل قسمها الأعلى وهو منتفخ قليلاً ، وليست تقوم على شىء بخلاف ما ارتأى طاليس ، إذ لا بد من سماء سفلى تجتازها الشمس والكواكب من الغرب لتعود فتظهر فى الشرق ، كما أنها تجتاز السماء العليا من الشرق إلى الغرب ؛ فالأرض معلقة فى وسط

السماء ، ثابتة فى مكانها ، لأنها واقعة على مسافة واحدة من الأجرام السماوية ، فليس هناك ما يجعلها تتحرك إلى جهة دون أخرى ، ولأن النسبة المذكورة بين ارتفاعها وعرضها تكفل لها الاستقرار بذاتها .

حـ — أما الأحياء فقد تولدت فى الرطوبة بعد التبخر ، أى فى طين البحر وهو مزاج من التراب والماء والهواء . فكانت فى الأصل سمكا مغطى بقشر شائك ، حتى إذا ما بلغ بعضها أشده نزح إلى اليبس وعاش عليه ونفض عنه القشر . والإنسان لم يوجد أول ماوجد على ما نراه يوجد اليوم طفلا عاجزاً عن توفير أسباب معاشه ، وإلا لكان انقرض ؛ ولكنه منحدر هو أيضاً من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع ، حملته فى بطنها زمناً طويلا إلى أن نمت قواه وتم تكوينه ، فاستطاع أن يقف على اليابسة وأن يحفظ حياته بنفسه .

ى — والتطور قانون عام : تخرج الأشياء من اللامتناهى ثم تنحل وتعود إليه ، ويتكرر الدور ، وهلم دواليك . منها ما « يشرق ويغرب فى آجال بعيدة » هى العوالم التى لا تحصى ؛ ومنها ما يتكون ويفسد فى أوقات قصيرة « ويعوض بعضها البعض على مر الزمان » هى الجزئيات ، مثل الحرارة تشرب ماء الأرض فيرد البخار هذا الماء للأرض مطراً ، وهكذا إلى نهاية الدور . فالحركة دائمة ، والموجودات متغيرة ، والمادة اللامتناهية باقية غير حادثة ولا مندثرة .

هـ — فانكسيمندريس يفسر تكوين الأشياء تفسيراً آلياً ، أى بمجرد اجتماع عناصر مادية وافتراقها بتأثير الحركة دون علة فاعلية متمايزة ودون غائية . وهو فى تصوره لهذا التكوين يكاد يقترب من تصور غير واحد من العلماء المحدثين (لابلاس مثلا) ويكاد يقول بمذهب التطور فى عالم الحياة ، بل يكاد يقول بقانون الجاذبية لولا أن رأيه يرجع — على حد تعبير أرسطو — إلى أن الأرض المستقرة فى مركز العالم تشبه رجلا يهلك جوعاً لأنه لا يجد سبباً يحمله على الأكل من طبق دون آخر من أطباق تحيط به على مسافة واحدة ! وانكسيمندريس يمد الوجود إلى غير حد فى المكان وفى الزمان ، فيقول بعوالم لا تحصى ، وبدور عام يتكرر إلى ما لا نهاية ، والقول الأول وليد المخيلة تأبى أن تتمثل حداً للمادة وخلاء ليس فيه شىء . والقول الثانى قديم لعله نشأ من ملاحظة اطراد حركات الأفلاك ، وتأيد بتحول الأجسام بعضها إلى بعض ، وتداول الفصول ؛ وهو على كل حال يعنى ضرورة مطلقة وقانوناً كلياً يسيطر على الوجود ، ويفسر كيف أن الوجود لم يبدأ ولن ينتهى — وهذه عقيدة شائعة بين فلاسفة اليونان يسميها الإسلاميون بالدهرية لقولها : إن الدهر دائر

لا أول له ولا آخر . غير أن انكسيمندريس ، مع إنكاره على طاليس أن يكون المبدأ الأول شيئاً معيناً ، قد وضع مبادئ عديدة معينة هي هذه الأضداد الموجودة في اللامتناهي دون أن يبين أصلها . أليست هي المبادئ الحقيقية ؟ أو ليس اللامتناهي حالة اختلاطها وتعادلها ؟ فلا يصح أن يسمى مبدأ بالمعنى الذي فهمه طاليس أي ما منه تتكون الأشياء ، لكنه مبدأ باعتباره نقطة بداية التطور العام — وهذه نظرة علمية ؛ أما المسألة الفلسفية فما تزال قائمة .

١٠ — انكسيمانس (٥٨٨ — ٥٢٤) :

ا — هو تلميذ انكسيمندريس ، وقد كان أقل منه توفيقاً في العلوم وأضيق خيالا . عاد إلى رأي طاليس في الأرض فاعتقد أنها قرص مسطح قائم على قاعدة . وأنكر حركة الشمس ليلا من تحتها ، واستبدل بها حركة جانبية حولها ، وعلل اختفاء الشمس من المساء إلى الصباح بأن جبالا شاهقة تحجبها عن الأنظار من جهة الشمال ، أو بأنها أبعد عن الأرض في الليل منها في النهار — وقد كان مثل هذا القول معروفاً عند المصريين . واشتغل بالظواهر الجوية ، ولا يلوح أنه أفاد العلم من هذه الناحية .

ب — وعاد إلى موقف طاليس في مسألة المادة الأولى : فقال إنها شيء محسوس متجانس ، ولكن هذا الشيء هو الهواء ، وإن الهواء لامتناهٍ يحيط بالعالم ويحمل الأرض . ولسنا ندري على وجه التحقيق السبب الذي حداه إلى إيثار الهواء . فقد يكون أن الهواء ألطف من الماء وأنه لا يفتقر مثله إلى قاعدة وأنه أسرع حركة وأوسع انتشاراً ، ومن ثمت أكثر تحقيقاً للاتناهي . وقد يكون أن علة وحدة الحي النفس ، والنفس هواء (ولفظ Psyché يعني باليونانية النَفْس والنَفَس) فالهواء نفس العالم وعلة وحدته . ومهما يكن السبب فالمحقق أن المبدأ الأول عنده الهواء ، وأن الموجودات تحدث منه بالتكاثف والتخلخل ، فإن تخلخل الهواء ينتج النار وما يتصل بها من الظواهر الجوية النارية والكواكب ، وتكاثفه ينتج الرياح فالسحاب فالمطر ، وتكاثف الماء ينتج التراب (الطمي فالأنهر) فالصخر .

ح — فانكسيمانس يستعيض عن اللامتناهي الذي هو مزاج من الأشياء جميعاً ، بشيء واحد هو الهواء ؛ وعن الحركة وما تحدثه من اجتماع وافتراق عارضين لأجزاء المادة ، بخاصتين ملازمتين للهواء إذ يتكاثف ويتخلخل بذاته فيحدث الأشياء بأنواعها . وعلى ذلك فهو يفسر العالم بعلة واحدة تعمل على نحو آلي . وفي هذا التفسير تقدم كبير بالمذهب الآلي إلى الوحدة والبساطة .

د — فالمدرسة الملطية إذ توجهت إلى العالم المحسوس تحاول معرفته بالملاحظة والاستدلال ، قد وضعت العلم الطبيعي . وهي إذ اعتبرت المادة قديمة حية أو متحركة بذاتها ، وتخيلتها تتحول إلى صور الوجود المختلفة بموجب ضرورة طبيعية قد وضعت الأحادية المادية المعروفة في الفلسفة الحديثة والتي ترد الأشياء إلى جوهر مادي واحد وتفسرها بتطور هذا الجوهر في الشكل والكم ليس غير . وبهذه النظرية سيقول أيضاً هرقليطس .

١١ — هرقليطس (٥٤٠ — ٤٧٥) :

ا — ولد في أفسوس من أسرة عريقة في الحسب . ولكنه زهد كل جاه وتوفر على التفكير . إلا أنه ظل أرستقراطياً بكل معنى الكلمة يمتد بنفسه ، ويباعد بينه وبين الناس ؛ يحتقر العامة ومعتقداتها الدينية ، وعباداتها السخيفة ، ومعارفها التقليدية ؛ وينقم من هوميروس وهزيود أنهما بثا فيها الخرافات والأضاليل ؛ ويستخرج من حكمها السياسي الشواهد على جهلها وعبثها ، فشبهها تارة بالأطفال ، وأخرى بالكلاب ، وثالثة بالحمير . بل إن كبرياءه تعدى العامة إلى العلماء ، فكان يزدري العلم الجزئي « الذي لا يثقف العقل » وينعى على فيثاغوراس واكسانوفان اشتغالهما به ؛ فلم يحسب ولم يرسم ولم يجر التجارب ، ولكنه كان يعتبر العلم الجدير به التفكير العميق في المعاني الكلية يخلع عليها أسلوباً فخماً مبهماً كثير الرمز والتشبيه حتى لقب بالغامض ؛ وقد قال هو نفسه في أسلوبه « إنه لا يفصح عن الفكر ولا يخفيه ، ولكنه يشير إليه » . وإن الشذرات المائة والثلاثين التي بقيت لنا من كتابه لتدل على ذلك دلالة كافية . غير أن ازدراءه العلم الجزئي تركه جاهلا بالطبيعة جهلا فاضحا ، وهبط به إلى صف العامة ، فقد اعتقد مثلا أن غروب الشمس انطفاؤها في الماء ، وأنها تتجدد كل يوم ، وأن قطرها قدم واحدة كما يبدو للبصر ، وغير ذلك من الأوهام . أما فلسفته فعميقة قوية ، وهي التي خلدت اسمه ، وكان لها أثر بعيد .

ب — « الأشياء في تغير متصل » : هذا قوله الأكبر وملخص مذهبه . وهو يمثل له بصورتين ، الواحدة جريان الماء فيقول : « أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين ، فإن مياها جديدة تجري من حولك أبداً » والصورة الأخرى اضطرام النار ، وهي أحب لديه من الأولى لأن النار أسرع حركة وأدل على التغير ، ولأنه يرى في النار المبدأ الأول الذي تصدر عنه الأشياء وترجع إليه . ولولا التغير لم يكن شيء ، فإن الاستقرار موت وعدم . والتغير صراع بين الأضداد ليحل بعضها محل بعض « والشقاق أبو الأشياء وملكها » : لولا المرض لما

اشتهينا الصحة ، ولولا العمل لما نعمنا بالراحة ، ولولا الخطر لما كانت الشجاعة ، ولولا الشر لما كان الخير . « أليست النار تحيا موت الهواء ، والهواء يحيا موت النار ، والماء يحيا موت التراب ، والتراب يحيا موت الماء ، والحيوان يحيا موت النبات ، والإنسان يحيا موت الاثنين ؟ » فالوجود موت يتلاشى ، والموت وجود يزول ؛ كذلك الخير شر يتلاشى ، والشر خير يزول . فالخير والشر ، والكون والفساد ، أمور تتلازم وتنسجم فى النظام العام ، بحيث يمتنع تعيين خصائص ثابتة للأشياء : « ماء البحر أنقى وأكدر ماء ، يشربه السمك ولا يستسيغه الإنسان ؛ هو نافع للأول ، ضار بالثانى . ونحن ننزل النهر ولا ننزل (من حيث أن مياهه تتجدد بلا انقطاع) ونحن موجودون وغير موجودين (من حيث أن الفناء يدب فينا فى كل لحظة) » فكل شىء هو كذا وليس كذا ، موجود وغير موجود .

ح — قلنا إنه يرى فى النار المبدأ الأول الذى تصدر عنه الأشياء وترجع إليه — لا النار التى ندركها بالحواس ، بل نار إلهية لطيفة للغاية أثيرية ، نسمة حارة حية عاقلة أزلية أبدية هى حياة العالم وقانونه (لوغوس) — يعتريها وهن فتصير ناراً محسوسة ، ويتكاثف بعض النار فيصير بحراً ، ويتكاثف بعض البحر فيصير أرضا . وترتفع من الأرض والبحر أبخرة رطبة تتراكم سحبا ، فتلتهب وتنقدح منها البروق وتعود ناراً ، أو تنطفئ هذه السحب فتكون العاصفة وتعود النار إلى البحر . ويرجع الدور . فالتغير يجرى أبداً فى طريقين متعارضين : طريق إلى أسفل ، وطريق إلى أعلا ، مع بقاء كمية المادة الأولى أو النار واحدة ومن تقابل هذين التيارين يتولد النبات والحيوان على وجه الأرض . غير أن النار تخلص شيئا فشيئا مما تحولت إليه ، فيأتى وقت لا يبقى فيه سوى النار ، وهذا هو الدور التام أو « السنة الكبرى »[1] تتكرر إلى غير نهاية بموجب قانون ذاتى ضرورى (لوغوس) . « فالمبادلة متصلة من الأشياء إلى النار ، ومن النار إلى الأشياء ، كما يستبدل الذهب بالسلع ، وتستبدل السلع بالذهب » . « وهذا العالم لم يصنعه أحد من الآلهة أو البشر ، ولكنه كان أبداً وهو كائن وسيكون ناراً حية تستعر بمقدار وتنطفئ بمقدار » . هذه النار هى الله « والله نهار وليل ، شتاء وصيف ، حرب وسلم ، وفرة وقلة ، يتخذ صوراً مختلفة كالنار المعطرة تسمى باسم العطر الذى يفوح منها » . أما النفس الإنسانية فهى بخار حار — والحرارة ضرورية

---

(١) وتسمى بالكور : « إن للفلك وأشخاصه ... أدواراً كثيرة ... ولأدوارها كور ... أما الأكوار فهى استئنافاتها فى أدوارها وعودتها إلى مواضعها مرة بعد أخرى » رسائل إخوان الصفاء طبعة القاهرة ١٩٢٨ ج ٣ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

للنحو — هى قبس من النار الإلهية تدبر الجسم كما تدبر النار العالم ، فيجب عليها أن تعلم قانونها الذى هو القانون الكلى ، وأن تعمل به فلا تتشبث بالجسم ومطالبه ، بل تضع ذاتها فى التيار العام ، وتقمع الشهوة لأن الشهوة توكيد للشخصية ، والشخصية انتقاض على القانون الطبيعى ومعارضة للتغير . والدين الحق مطابقة الفكر الفردى للقانون الكلى (لوغوس) والفناء فى النار العالمية .

ى — فهرقليطس يقول بوحدة الوجود مثل فلاسفة ملطية ، ويمتاز بشعوره القوى بالتغير ، وأن الفكرتين لتستتبعان الشك حتماً ؛ فوحدة الوجود تعنى أن شيئاً واحداً بعينه هو الموجود ، وأن ما عداه مظاهر وظواهر ؛ والتغير يعنى أن كل موجود جزئى فهو كذا وليس كذا فى آن واحد ، أو هو نقطة تتلاقى عندها الأضداد وتتنازعها ، فيمتنع وصفه بخصائص دائمة ضرورية ، ويمتنع العلم . فلا عجب أن يقوم لهرقليطس أتباع من السوفسطائيين يذهبون فى الشك إلى أقصى حد ، ولو أنه هو لم يكن يقصد إلى هذه النتيجة ، فإنه إذ قال باللوغوس[1] أراد أن يضع حقيقة مطلقة فوق التغير المحسوس ، وعلماً يقينياً فى الجوهر الأوحد ، وفى العقل الإنسانى الذى يدركه . ولكن تاريخ الفلسفة يعلمنا أن منطق المذهب أقوى من مقاصد صاحب المذهب ، فهرقليطس ، سواء أراد أو لم يرد ، هو الجد الأول للشك فى الفلسفة اليونانية .

---

(١) هو أول من قال به . وسيكون لهذه النظرية تاريخ . سيصطنعها الرواقيون وهم مجددو مذهبه . وسيصطنعها فيلون اليهودى . وسيرى بعض أوائل المفكرين المسيحيين أنها أقرب ما تكون الى عقيدة « الكلمة » أو المسيح ، فيقولون إن هرقليطس كان مسيحياً قبل المسيح . يقول القديس يوحنا فى مفتتح إنجيله : « فى البدء كان الكلمة (لوغوس) ... كل به كوّن وبغيره لم يكوّن شىء مما كوّن فيه كانت الحياة ... » ولكن يوحنا يقول : « ... والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » . فلا ينبغى أن يذهب اشتراك اللفظ بما بين النظريتين من فارق عميق : فإن هرقليطس يقصد قانوناً ذاتياً للعالم هو تعميم الاستقراء ، والمسيحية تقصد إلهاً مفارقاً للعالم عاقلا وتعقله « كلمته » .

الفصل الثانى

الفيثاغوريون

أو نشأة العلم الرياضى

١٢ — فيثاغوراس وفرقته :

ا — نشأ فيثاغوراس (٥٧٢ — ٤٩٧) فى ساموس ، وكانت جزيرة أيونية زاهرة بحريتها وتجارتها وتقدم الفنون فيها . طوّف فى أنحاء الشرق . ولما ناهز الأربعين قصد إلى إيطاليا الجنوبية ، وكان المهاجرون اليونان قد بلغوا فيها درجة عالية من المدنية والثقافة . ونزل ثغر أقروطونا حيث كانت مدرسة طبية شهيرة . وما لبث أن عرف بالعلم والفضل . فطلب إليه مجلس الشيوخ ، فيما يذكر ، أن يعظ الشعب ، ففعل ، فذاع اسمه وأقبل عليه المريدون من مختلف مدن إيطاليا الجنوبية وصقلية ومن روما . فأنشأ فرقة دينية علمية تشبه الأورفية ، أو هى أخذت عنها ثم أثرت فيها . وكانت فرقته مفتوحة للرجال والنساء من اليونان والأجانب على السواء ، يعيش أعضاؤها فى هفة وبساطة بموجب قانون ينص على الملبس والمأكل والصلاة والترتيل والدرس والرياضة البدنية . فكانوا منظمين تنظيما دقيقاً يسدعون بما يؤمرون غير ناظرين إلا إلى « أن المعلم قد قال » . وكان المعلم متشبعاً بعاطفة دينية قوية ، ومقتنعاً بفكرة جليلة هى أن العلم وسيلة فعالة لتهذيب الأخلاق وتقديس النفس ، فجعل من العلم رياضة دينية إلى جانب الشعائر ، ووجه تلاميذه هذه الوجهة ، فاشتغلوا بالرياضيات والفلك والموسيقى والطب وشرح هوميروس وهزيود .

ب — وكان طبيعياً من هذه الجماعة المثقفة المتضامنة الرامية إلى الإصلاح فى بلد حديث خلو من التقاليد كثير التقلبات الديموقراطية أن تفكر فى السياسة وتميل إلى نظام أرستقراطى يقر الأمور فى نصابها ، فتؤثر من هذه الناحية أيضاً فيمن ينتمى إليها من الحكام والأهلين بل تتحول إلى هيئة سياسية وتتولى الحكم بنفسها . وهذا ما حدث فى أقروطونا وغيرها من المدن الإيطالية فى ظروف لم تصل إلينا أخبارها . غير أن الشعب والأعيان المبعدين عن الحكم

لم يرضوا عن هذا الانقلاب ؛ وما زال المعارضون يعملون فى الخفاء حتى تألبوا ذات يوم على الدار التى كان زعماء الفرقة مجتمعين فيها فأحرقوها ، ولم ينج من الفيثاغوريين سوى اثنين . أما فيثاغوراس فقد قيل إن حملات أعدائه كانت اضطرته للهجرة ، وأنه مات قبل الثورة ؛ وقيل بل كان فى أقروطونا ولكنه كان متغيباً عن مركز الجمعية يوم الحريق ، فاستطاع أن ينجو بنفسه . وشبت الثورات على أنصاره فى مختلف المدن ، فثبتوا لها فى مدينتى رجيوم وترنتا ، وعبر البحر إلى القارة اليونانية من خذل منهم . ولما تعاظم شأن أثينا قدمها بعضهم فكان لهم أثر خطير فى الفلسفة والعلوم . ثم تلاشت الجمعية فى منتصف القرن الرابع ، ولم يبق منها سوى أفراد تناقلوا تعاليمها ، فكانوا حلقة الاتصال بين هذا العهد الأول وعهد ثان للجمعية بدأ فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد واستمر إلى القرن الرابع بعده .

ح — هذا ما يقال بالإجمال عن فيثاغوراس وفرقته . وقد فقدت مصنفاتهم وكل ما ينسب لفيثاغوراس من « أشعار ذهبية » ومن « كتب ثلاثة » (المهذب والسياسى والطبيعى) فهو منحول يرجع إلى العهد الثانى . كذلك الكتب المعزوة لتلاميذه الأولين (وأشهرهم فيلولاوس) منحولة أو مشكوك فيها إلى حد كبير . أما أقوال الفيثاغورية الجديدة عن المدرسة القديمة ، فيجب أن تقابل بغاية الحذر لما فيها من ميل ظاهر إلى الغريب الشاذ ، ومن تأويل شخصى ، ومن أفكار وأمور لم تعرف إلا بعدها ، منها الأفلاطونى والرواقى بل البوذى أيضاً وحتى هيرودوت ، وقد عاش فى الأوساط الفيثاغورية فى إيطاليا الجنوبية وصقلية بعد وفاة فيثاغوراس بنصف قرن ، يخلط فى كلامه عنه وعن جمعيته . ذلك بأن مخيلة الأتباع والأنصار كانت قد تناولت فيثاغوراس ونسجت حوله الأساطير ، فقالوا إنه ابن أبولون أو هرمس ، وروّوا عنه من الخوارق كل عجيب غريب . كذلك الجمعية يروى عنها أشياء كثيرة : أشهرها أنها كانت تحرم أكل الحيوان وبعض النبات ، ويقال إن هذا التحريم لم يكن مطلقاً . ويذكر أنها كانت سرية يتعارف أفرادها بإشارات خاصة ، ويتعهدون بكتمان تعاليمها ، الدينى منها والعلمى ، وأنهم أعدموا واحداً منهم غرقاً لإفشائه سراً هندسياً وليس ما يمنع من التصديق بهذه السرية ، لا سيما أن أرسطو نفسه ، إذ يتحدث عن المذهب لا يميز بين ما كان لفيثاغوراس فيه من نصيب وما كان لتلاميذه ، بل يذكرهم جملة بقوله : « الذين يدعون بالفيثاغوريين » أو « المدرسة الإيطالية » مما يدل على أن الجمعية كانت وحدة توارت وراءها شخصيات أفرادها حتى تسربت آراؤهم ومكتشفاتهم إلى الخارج فاندمجت فى الثقافة اليونانية خالصة من كل شخصية .

١٣ — مذهبهم :

١ — يذكر أن فيثاغوراس هو الذى وضع لفظ « فلسفة » إذ قال : « لست حكيما ، فإن الحكمة لا تضاف لغير الآلهة ، وما أنا إلا فيلسوف » أى محب للحكمة . وكان رياضياً وموسيقياً ؛ ولعل أهم آثاره فى هذا الباب أنه برهن على أن قوة الأصوات تابعة لطول الموجات الصوتية ، فبين أن الأنغام تقوم خصائصها بنسب عددية ويترجم عنها بالأرقام ، فوضع الموسيقى علماً بمعنى الكلمة بإدخال الحساب عليها . ولا شك أن دراسة الفيثاغوريين للأعداد والأشكال والحركات والأصوات ، وما بينها من تقابل عجيب ، وما لها من قوانين ثابتة ، صرفت عقولهم إلى ما فى العالم من نظام وتناسب « فرأوا أن هذا العالم أشبه بعالم الأعداد منه بالماء أو النار أو التراب ، وقالوا إن مبادئ الأعداد هى عناصر الموجودات ، أو إن الموجودات أعداد ، وأن العالم عدد ونغم »[1] ، أو قالوا أيضاً « إن الأعداد نماذج تحاكيها الموجودات دون أن تكون هذه النماذج مفارقة لصورها »[2] إلا فى الذهن . والقولان يرجعان إلى واحد مؤداه التوحيد بين عالم الموجودات وعالم الأعداد . وقد ساعد على هذا التصور أنهم لم يكونوا يتمثلون العدد مجموعاً حسابياً ، بل مقداراً وشكلا ، ولم يكونوا يرمزون له بالأرقام ، بل كانوا يصورونه بنقط على قدر ما فيه من آحاد ، ويرتبون هذه النقط فى شكل هندسى : فالواحد النقطة ، والاثنان الخط ، والثلاثة المثلث ، والأربعة المربع ، وهكذا ؛ وكانوا من ثمت يصفون الأعداد بالأشكال فيقولون الأعداد المثلثة والمربعة والمستطيلة ، أى التى تصور بنقط مرتبة بشكل مخصوص . فخلطوا بين الحساب والهندسة ، ومددوا فى المكان ما لا امتداد له ، وحولوا العدد أو الكمية المنفصلة إلى المقدار أو الكمية المتصلة . ثم لم يجدهم ذلك شيئاً فى تفسير الطبيعة ، لأنهم إنما « أصابوا خصائص الجسم الرياضى لا خصائص الجسم الطبيعى ، ولم يفسروا الحركة والكون والفساد ، وهى أمور بادية فى العالم المحسوس ، ولم يبينوا علة ثقل التراب والماء ، وخفة النار ، وسائر الخصائص فى الأجسام المحسوسة ، ولكنهم ركبوا الأجسام الطبيعية من الأعداد ، أى أنهم ركبوا أشياء حاصلة على الثقل والخفة من أشياء ليس لها ثقل ولا خفة »[3] .

---

(١) أرسطو ما بعد الطبيعة م ا ف ٥ .
(٢) المرجع المذكور م ا ف ٦ .
(٣) المرجع المذكور م ا ف ٨ .

ب — وهذا هو السبب فى أنهم لم يضعوا فى العلم الطبيعى رأياً جديداً ، بل نقلوا عن انكسيمندريس وبالأخص عن انكسيمانس . فتصوروا العالم كائناً حياً — حيواناً كبيراً — يستوعب بالتنفس خلاءً لا متناهياً هو عبارة عن هواء غاية فى اللطافة ضرورى للفصل بين الأشياء ، ومنعها من أن تتصل فتكوّن شيئاً واحداً[1] . وقالوا بعوالم كثيرة ، ولكن فى عدد متناه . وجعلوا الأشياء تحدث بالتكاثف والتخلخل ، لا بتحول بعضها إلى بعض ، لأن الأعداد نظام ثابت متجانس . وقالوا بالدور وعودة الأشياء هى بأنفسها فى آجال طويلة (« السنة الكبرى ») إلى غير نهاية . ويروى فى هذا الصدد أن أوديموس تلميذ أرسطو قال مخاطباً تلاميذه : « إذا صدقنا الفيثاغوريين فسيجىء يوم نجتمع ثانية فى هذا المكان ، فتجلسون كما أنتم لتستمعوا إلىّ ، وأتحدث أنا إليكم كما أفعل الآن » .

ح — أما النفس فقد وصلت إلينا عنهم أقوال متباينة فيها . فنحن نجد عند أفلاطون رأياً لبعضهم يقول إن النفس نوع من النغم ؛ ومعنى ذلك أن الحى مركب من كيفيات متضادة (الحار والبارد واليابس والرطب) والنغم توافق الأضداد وتناسبها ، بحيث تدوم الحياة ما دام هذا النغم وتنعدم بانعدامه[2] . وهذه من غير شك نظرية أطباء الفرقة (أو نفر منهم) صدروا فيها عن فكرتهم العامة (« العالم عدد ونغم ») وخالفوا أموراً جوهرية فى مذهبهم : فإن النغم نتيجة توافق الأضداد ، فإذا كانت النفس نغماً ، لزم من جهة أن ليس لها وجود ذاتى — والفيثاغورية تؤمن بالخلود — ولزم من جهة أخرى أن ليس لها وجود سابق على عناصر البدن — والفيثاغورية تؤمن بالتناسخ[3] . على أن أرسطو إذ يذكر هذه النظرية لا يعزوها للفيثاغوريين[4] ولكنه يضيف إليهم صراحة قولين : الواحد أن النفس هى هذه الذرات المتطايرة فى الهواء والتى تدق عن إدراك الحواس فلا تبصر إلا فى شعاع الشمس وتتحرك دائماً حتى عند سكون الهواء — فكأن أصحاب هذا الرأى أرادوا أن يفسروا الحركة الذاتية فى الحيوان ، فاعتقدوا أن هذه الذرات المتحركة دائماً تدخل جسمه وتحركه . ولعلهم ظنوا أن هذا التصور يفسر أيضاً كون المولود يجد ساعة ميلاده نفساً تحل فيه . وهم على كل حال يتابعون معاصريهم فيتصورون النفس مادية وإن جعلوها مادة لطيفة

---

(١) أرسطو : السماع الطبيعى م ٤ ف ٦ .
(٢) فيدون : ص ٨٥ (هـ) — ٨٦ (د) .
(٣) فيدون : ص ٩٢ (ا ب جـ) .
(٤) كتاب النفس : م ا ف ٤ .

جداً . ويذهب القول الآخر إلى أن النفس هى المبدأ الذى تتحرك به هذه الذرات[1] وهو قول يخيل إلينا أنه رأيهم الحق ، وهو أرقى من القولين السابقين وجامع لهما ، بحيث تكون النفس عندهم مبدأ أو علة توافق الأضداد فى البدن ، وعلة حركته جميعاً .

و — بعد الموت تهبط النفس إلى « الجحيم » تتطهر بالعذاب ، ثم تعود إلى الأرض تتقمص جسما بشرياً أو حيوانياً أو نباتياً ، ولا تزال مترددة بين الأرض والجحيم حتى يتم تطهيرها ، مثلما قالت الأورفية . ويروى أن فيثاغوراس كان يدعى أنه متجسد للمرة الخامسة ، وأنه يذكر حيواته السابقة . وعند الفيثاغوريين أيضاً أن أزمنة التقمص قد حددها الآلهة ، ونحن مِلكهم ، فليس لنا أن نخالف النظام الذى وضعوه بالانتحار ، أو بإهلاك الحيوان فيما عدا التضحية . وقد يلوح أن نظرية التناسخ متمشية مع نظرية الدور تؤيدها وتفسرها فيما يختص بالأحياء ، ولكن الغاية من التناسخ الطهارة التامة والسعادة الدائمة فكيف توفق بين هذا الدوام وبين الدور ؟

هـ — ولم تصل إلينا نصوص صريحة عن عقيدتهم فى الألوهية . أما ما يذكر من أنهم كانوا يضعون « الواحد » فوق الأعداد والموجودات ، ويجعلونه مصدرها جميعاً ، فتأويل أفلاطونى . وكل ما يمكن أن يقال إنهم طهروا الشرك الشعبى من أدرانه ، ونزهوا الآلهة عما ألحقت بهم المخيلة العامة من نقائص ، وذلك بتأويل الأساطير تأويلا مجازياً (٩٤ د) .

١٤ — علومهم :

ا — وإذا انتقلنا من تصورهم للمسائل الكلية إلى آرائهم فى العلوم الجزئية ، وجدنا فكرتهم الأساسية مسيطرة عليها كذلك . وقد مرت بنا الإشارة إلى أطبائهم ، فنقول الآن إنهم أثروا أكبر تأثير فى مدرسة أقروطونا وحولوها إلى مذهبهم . بنوا الطب على تناسب الأضداد ، فقالوا إن مبدأ الحياة الحار ملطفاً بالبارد أى بالهواء الخارجى يُجذب بالشهيق ويُدفع بالزفير ، فإذا اختلت النسبة بينهما كان المرض ، وإذا زاد الاختلال كان الموت . فالحياة والصحة تناسب وتناسق ، والمرض والموت اختلال التناسب أى إفراط أو تفريط بالإضافة إلى الحد الملائم ، والتطبيب حفظ التناسب أو إعادته . وطبقوا هذا الرأى تطبيقاً عاماً فقالوا مثلا إن خير مناخ هو مناخ المنطقة المعتدلة أى التوسطة بين الحار والبارد ، وهكذا .

(١) كتاب النفس م ١ ف ٢ .

ومن نوابغهم فى هذا الفن القميون زعيم مدرسة أقروطونا . ومما يذكر له قوله : ليست النفس فى القلب (وكان هذا اعتقاد القدماء) وإنما هى فى الدماغ ، والدماغ مركز التفكير ، تصل إليه التأثيرات الواقعة على أعضاء الحواس خلال قنوات دقيقة . ويقال إنه أثبت رأيه بالتجربة ، فبين بالتشريح أن كل اضطراب فى المخ يفسد الوظائف الحاسة .

ب — وامتازوا فى علم الفلك ، وصدروا فيه أيضاً عن اعتباراتهم الرياضية ، فمضوا يصورون العالم كما شاءت لهم غير حافلين بالواقع ، كأنما كانت مهمتهم تكوين العالم لا تمثيله وتفسيره « فقالوا مثلا إن العدد الكامل هو العشرة لأنه مؤلف من الأعداد جميعاً وحاصل على خصائصها جميعاً ، فيلزم أن الأجرام السماوية المتحركة عشرة (لأن العالم كامل وحاصل على خصائص الكامل) . ولكن لما كان المعروف المنظور منها تسعة فقط (٦٤ ج) فقد وضعوا أرضاً غير منظورة مقابلة لأرضنا إلى أسفل ليكملوا العدد عشرة »[1] . كذلك ذهبوا إلى أن مركز العالم يجب أن يكون مضيئاً بذاته ، لأن الضوء خير من الظلمة ، ويجب أن يكون ساكناً ، لأن السكون خير من الحركة : فليست الأرض مركز العالم وهى مظلمة وفيها نقائص كثيرة ؛ ولكنه « نار مركزية » غير منظورة لأنها واقعة هى أيضاً إلى أسفل أرضنا ، والمأهول من الأرض فى اعتقادهم نصفها الأعلى . ولم يفتهم أن يميزوا لكل من النار المركزية والأرض الأخرى شأناً فى نظام العالم : النار المركزية تمد الشمس بحرارتها ، فتعكس الشمس الحرارة على الأرضين وعلى القمر . والأرض الأخرى تفسر الكسوف والخسوف بتوسطها بين النار المركزية وبين القمر ، أو الشمس[2] . ومهما يكن من قيمة استدلالهم ، فإن تنحيتهم الأرض عن مركز العالم كان ثورة على التصور القديم . وثمة ثورة أخرى هى قولهم بكروية الأرض ؛ ولم يبلغ إلينا سبب هذا القول ، وقد يكون أن الدائرة خير الأشكال لكمال انتظام جميع أجزائها بالنسبة المركز ، على ما هو معروف عنهم . وبديهى أن الخيال والعاطفة الدينية كانا يجدان غذاء فى التصورات التى يوحيان بها ، فالفيثاغوريون إذ اخترعوا النار المركزية ووضعوها فى وسط العالم ، مجدوها وأسموها أم الآلهة ، وقلعة تزوس ، والهيكل ، وموقد العالم ، والمصدر الأول لكل حياة وكل حركة . على أن المتأخرين منهم لم يترددوا فى العدول عن النار المركزية والأرض الأخرى بعد أن بلغ الإسكندر الهند ولم تظهر هذه ولا تلك . وقام واحد منهم هو أرسطرخوس من علماء القرن الثالث فاستبدل الشمس بالنار

---

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ١ ف ٥ ، وكتاب السماء م ٢ ف ١٣ .

(٢) أرسطو : كتاب السماء م ٢ ف ١٣ .

المركزية ، فتم له الرأى المعول عليه الآن ، ولكنه لم يصادف قبولا عند أهل زمانه ، فبقى فى بطون الكتب إلى أن قرأه كوبرنيكوس فى شيشرون فوضع نظريته .

ح — ومن المأثور عنهم قولهم إن لحركات الأفلاك نغمات[1] . وحجتهم فى ذلك أن الجسم إذا تحرك بشىء من السرعة أحدث صوتاً هو صوت اهتزاز الهواء أو الأثير ، فلا بد أن يكون لحركات الأفلاك فى الأثير السامى أصوات . وتتفاوت سرعة الأفلاك بتفاوت مسافاتها ، كما تتفاوت فى العود سرعة الاهتزازات بتفاوت طول الأوتار ، فلا بد أن يكون فى السماء ألحان كألحان العود ، وإن كنا لا نشعر بها فذلك لأننا نحسها باتصال ، والصوت لا يشعر به إلا بالإضافة إلى السكوت . ولا يبعد أنهم كانوا يخرجون من هذا القول إلى مثل ما خرج إليه إخوان الصفاء حيث قالوا : « إذا تفكر ذو اللب تبين له أن فى نغمات تلك الحركات لذة وسروراً مثل ما فى نغمات أوتار العيدان فى هذا العالم . فعند ذلك تشوقت نفسه إلى الصعود إلى هناك والاستماع لها والنظر إليها . فاجتهد يا أخى فى تصفية نفسك وتخليصها من بحر الهيولى وأسر الطبيعة وعبودية الشهوات الجسمانية ، فإن هذه هى المانعة لها من الصعود إلى هناك بعد الموت »[2] .

ط — فالفيثاغورية نهضة عظيمة متعددة الوجهات . هى نحلة دينية كانت أصدق نظراً فى الدين من الأرفية . وهى مذهب فلسفى يعد أول محاولة للارتفاع عن المادة التى وقف عندها فلاسفة أيونية ، ولفهم العالم بقوانين واضحة وأعداد معينة . وهى مدرسة علمية عنيت بالرياضة والموسيقى والفلك والطب ، وعرفت بضع قضايا حسابية وهندسية ، ووضعت فى الهندسة ألفاظاً اصطلاحية . وهى هيئة سياسية ترمى إلى إقرار النظام فى المدينة على أيدى الفلاسفة .

---

(١) أرسطو : كتاب السماء م ٢ ف ٩ .

(٢) الجزء الأول ص ١٥٨ و ص ١٦٨ باختصار .

الفصل الثالث

الإيليون

أو نشأة ما بعد الطبيعة

١٥ — أكسانوفان (٥٧٠ — ٤٨٠) :

ا — بارمنيدس هو المؤسس الحقيقى للمدرسة الإيلية (والنسبة إلى إيليا مدينة بناها الأيونيون الهاربون من وجه الفرس على الشاطىء الغربى فى إيطاليا الجنوبية حوالى سنة ٥٤٠) ولكن كان قد سبقه فيها أكسانوفان الذى أعلن أصل المذهب ، ثم وضعه هو فى صورته الكاملة . وجاء بعده زينون ، فنصب نفسه للدفاع عنه . ثم مليسوس أدخل عليه بعض التعديل دون أن يمس جوهره ؛ وكلهم « يقولون إن العالم موجود واحد ، وطبيعة واحدة . يقولون هذا لا كالطبيعيين الذين يفرضون موجوداً واحداً (ماء أو هواء أو ناراً) ويستخرجون منه كثرة الأشياء بالحركة والتغير العرضى (اجتماع وانفصال أو تكاثف وتخلخل) بل يقولون إن العالم ساكن »[1] فهم ينكرون الكثرة والحركة .

ب — ولد أكسانوفان فى قولوفون من أعمال أيونيا بالقرب من أفسوس . ويرجح أن غزوة الفرس لبلاده هى التى حملته على مغادرتها . فطوّف فى أنحاء العالم اليونانى سنين عديدة إلى أن بلغ صقلية ، ثم انتقل إلى إيطاليا الجنوبية واستقر فى إيليا . كان شاعراً حكيما شريف النفس حر الفكر مر النقد : قال ساخراً من تكريم الناس للمصارعين « إن حكمتنا خير وأبقى من قوة الرجال والخيل » وقال متهكما على فيثاغوراس لاعتقاده بالتناسخ : « إنه مر ذات يوم برجل يضرب كلباً ، فأخذته الشفقة ، فصاح وهو ينتحب : أمسك عن ضربه يا هذا ، إنها نفس صديق لى ، لقد عرفته من صوته » .

ح — ويقال بالإجمال إنه ارتفع بعقله فوق حكايات قدماء الشعراء ، وصرف جهده إلى القول بنظام أسمى من التجربة المحسوسة ، ومن الرأى العام الجاهل المتقلب . وأهم أقواله

---

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ا ف ٥ .

« إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة وأضافوا إليهم عواطفهم وصورتهم وهيئتهم ، فالأحباش يقولون عن آلهتهم إنهم سود فطس الأنوف ، ويقول أهل تراقية إن آلهتهم زرق العيون حمر الشعور ، ولو استطاعت الثيرة والخيل لصورت الآلهة على مثالها . وقد وصفهم هوميروس وهزيود بما هو عند الناس موضوع تحقير وملامة . ألا إنه لا يوجد غير إله واحد ، أرفع الموجودات السماوية والأرضية ، ليس مركباً على هيئتنا ، ولا مفكراً مثل تفكيرنا ولا متحركا ولكنه ثابت ، كله بصر ، وكله فكر ، وكله سمع ، يحرك الكل بقوة عقله وبلا عناء » . هذا كلام قوى فى التنزيه والتوحيد لم يعهد له مثيل فى اليونان . غير أن أرسطو يذكر « أنه نظر إلى مجموع العالم وقال إن الأشياء جميعاً عالم واحد ، ودعا هذا العالم الله ، ولم يقل شيئاً واضحاً ، ولم يبين إن كان العالم عنده واحداً من حيث الصورة أو من حيث المادة »[1] . فكأنه كان حلولياً ، أو كأنه أخذ وحدة الوجود عن فلاسفة وطنه أونية ، وتصور الوجود تصوراً روحياً . وعلى أى حال فلمبارته قيمتها فى نفسها ، وهى جديرة أن تجعل منه واضع « العلم الإلهى » .

١٦ — بارمنيدس (٥٤٠ — ؟) :

ا — ولد فى إيليا « ويقال إنه تتلمذ لا كسانوفان »[2] . ومن المحقق أنه تأثر به فآمن بوحدة الوجود . وضع كتابه « فى الطبيعة » شعراً فكان أول من نظم الشعر فى الفلسفة . وكتابه قسمان : الأول فى الحقيقة ، أى الفلسفة ، والثانى فى الظن ، أى العلم الطبيعى ، فإن المعرفة عنده نوعان : عقلية وهى ثابتة كاملة ، وظنية وهى قائمة على العرف وظواهر الحواس . فالحكيم يأخذ بالأولى ويعول عليها كل التعويل ، ثم يلم بالأخرى ليقف على مخاطرها ويحاربها بكل قواه .

ب — والحقيقة الأولى هى « إن الوجود موجود ، ولا يمكن ألا يكون موجوداً » . أما اللاوجود « فلا يدرك إذ أنه مستحيل لا يتحقق أبداً ، ولا يعبر عنه بالقول ؛ فلم يبق غير

---

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ا ف ٥ ص ٩٨٦ ع ب س ٢٠ — ٢٤ ، وهذا النص دليل على أن كتاب « فى أكسانوفان وملبسوس وغورغياس » المنسوب إلى أرسطو منحول ، لأنه يضيف إلى شاعرنا جدلا دقيقاً فى المتناهى واللامتناهى ، والحركة والسكون ، لو صح لنقض العبارة المذكورة فوق ، فضلا عن أنه بعيد من مزاج الشاعر . والكتاب لأرسطوطالى من أهل القرن الأول للميلاد .

(٢) أرسطو : المرجع المتقدم .

طريق واحد هو أن نضع الوجود ، وأن نقول إنه موجود » . « والفكر قائم على الوجود ، ولو لا الوجود لما وجد الفكر ، لأن شيئاً لا يوجد ولن يوجد ما خلا الوجود » . ولما كان الوجود موجوداً ، فهو قديم بالضرورة إذ يمتنع أن يحدث من اللاوجود ، ويمتنع أن يرجح حدوثه مرجح فى وقت دون آخر . فليس للوجود ماض ولا مستقبل ، ولكنه فى حاضر لا يزول . وعلى ذلك « يمتنع الكون ، ولا يتصور الفساد » وينتفى التغير . والوجود والواحد متكافئان ، فيلزم أن الوجود واحد فقط متجانس « مملوء كله وجوداً » . ويلزم أنه ثابت ساكن فى حدوده « مقيم كله فى نفسه » إذ ليس خارج الوجود ما منه يتحرك ، وما إليه يسير . وهو كامل متناهٍ أى معين « لا ينقصه شىء » إذ ليس خارج الوجود وجود يكتسب . وهو تام التناهى والتعيين فى جميع جهاته ، إذ لا يمكن أن يكون بعضه أقوى أو أضعف من بعض ؛ مثله مثل كرة تامة الاستدارة ، متوازنة فى جميع نقطها . وبالجملة لما اقتنع بارمنيدس بأن العالم واحد ، رأى أن ما يطلق عليه بهذا الاعتبار هو أنه وجود . وتأمل معنى الوجود مجرداً ومفرغاً من كل مفهوم سوى هذا المفهوم البسيط الهزيل الذى يعنى الوجود بالإطلاق ، فأدرك أن الوجود واحد قديم ثابت كامل ، وأن هذه الصفات لازمة من معنى الوجود . فآثر هذا اليقين العقلى ، وأنكر الكثرة والتغير ، واعتبرهما وهماً وظناً : أليس التغير يعنى أن الموجود كان موجوداً ولم يكن موجوداً (ما صار إليه) وأنه باقٍ فى الوجود ، ومع ذلك فهو ليس موجوداً (على ما كان) ؟ أو ليست الكثرة تعنى أن كل وحدة من وحداتها هى كذا أى وجود معين ، وليست كذا أى ليست وجوداً ؟ إذ أن قولنا عن شىء إنه ليس كذا ، معناه أن هذا الشىء حاصل على اللاوجود ، وهذا معنى غير معقول .

ح — « ولكنه اضطر أن يتبع الظواهر المحسوسة ، وقال إن الأشياء واحد فى العقل ، كثير فى الحس »[1] فانتقل من يقين العقل إلى ظن الحواس ، ومن الفلسفة إلى العلم الطبيعى يحاول أن يفسر الظواهر ، وأن يورد ما يبلغ إليه الظن فيها ، فقبل الوجود واللاوجود فى آن واحد ، وهو يعلم أن هذا طريق معارض للعقل ، ولكنه يعلم أيضاً أنه أهون عند العقل من طريق الذين يعتقدون « أن الوجود واللاوجود شىء واحد ، ثم إنهما ليسا شيئاً واحداً » : يريد فيما يلوح معاصره هرقليطس . فتصور بارمنيدس الوجود الكامل غير المنقسم كرة مادية ، كما تصور الفيثاغوريون العدد ممتداً ، وشرع يسرد آراء تذكر بقصص هزيود وأقوال

---

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ١ ف ٥ .

انكسيمندريس وانكسيمانس . فهل كان جاداً فى هـذا القسم الثانى من الكتاب ، مغلوباً على أمره كما يقول أرسطو أم إنه بجمعه بين خيال هزيود وعلم الأيونيين أراد أن يسخر من العلم الطبيعى ومن أصحابه ، وأن يؤيد بالخُلف القسم الأول فيبين أن العالم المحسوس لا يفسر بغير ما يقتضيه التغير من اجتماع الوجود واللاوجود ، وأن هـذا الاجتماع غير معقول ، وأن التغير وهم ؟

د — ومهما يكن من هذه المسألة ، ومن تشخيص الوجود فى كرة مادية متصلة هى مع ذلك واحدة غير منقسمة ، فإن ميزة بارمنيدس هى أنه فيلسوف الوجود المحض . تجاوز عالم الظواهر ، وعالم الأعداد والأشكال ، وبلغ إلى الموضـوع الأول للعقل وهو الوجود . ولقد بهره معنى الوجود ، فلم يعد يرى غير أمر واحد هو « أن ما هو موجود فهو موجود ولا يمكن ألا يوجد » وأن « الوجود موجود واللاوجود ليس موجوداً ، ولا مخرج من هذه الفـكرة أبداً » . وكان أول فيلسوف جرد مبـدأ الذاتية[1] ومبدأ عدم التناقض (٧١ جـ) وأعلنهما صراحة ، وجعل منهما أساس العقل الذى لا يتزعزع ، فى نفس الوقت الذى كان هرقليطس يهوى فيه على هذا الأساس بكل قوته . ولئن لم يفطن بارمنيدس إلى أن الوجود والواحد يقالان على أنحاء عدة ، ولم يفرق بين معانيهما المختلفة ، فعذره أن هذه المعانى لم تكن قد تميزت بعد ، وهى لن تتميز إلا على يد أرسطو[2] . وحسبه فخراً أنه ارتفع إلى مبادئ الوجود ومبادئ العقل بقوة لم يسبق إليها ، فأنشأ الفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا ، واستحق أن يدعوه أفلاطون « بارمنيدس الـكبير » .

١٧ — زينون الإيلى (٤٩٠ — ٤٣٠) :

ا — هو تلميذ بارمنيدس . نكاد لا نعرف شيئاً عن حيـاته سوى أنه ائتمر بطاغية مدينته ، فانكشف أمره ، فأذيق عذاباً أليماً احتمله بثبات عظيم حتى الموت . وإذا أخـذنا برواية أفلاطون[3] قلنا إنه وضع كتاباً فى شبابه قصد به إلى تأييد مذهب معلمه ضـد الذين سخروا منه وحاولوا أن يبينوا أن القول بالوحدة يستتبع نتائج مضحكة ومناقضة له (وهؤلاء هم الفيثاغوريون الذين يؤلفون العالم من أعداد أى من وحدات منفصلة) . فحارب أصحاب

(١) « كل موجود فهو موجود » .
(٢) انظر فيما بعد عدد ٦٠ ب ؛ ٧١ ب .
(٣) محاورة « بارمنيدس » ص ١٢٧ (ا) — ١٢٨ (جـ) .

الكثرة بأن ألزمهم المحالات ، وبين أن لمذهبهم نتائج هى أدعى للضحك . فهو قد نهج منهجاً جدليا بحتاً يقوم على برهان الخلف ، ويرمى إلى إفحام الخصم . ولم يصل إلينا من المعلومات ما يكفى لتكوين فكرة مضبوطة عن كتابه وترتيب أقواله ، ولكن أرسطو أورد بعض حججه فى امتناع الكثرة والحركة[1] .

ب — أما الكثرة فله عليها حجج أربع : يقول لا تخلو الكثرة أن تكون إما كثرة مقادير ممتدة فى المكان ، أو كثرة آحاد (أعداد) غير ممتدة ولا متجزئة . والحجة الأولى تنظر فى الفرض الأول ، ومؤداها أن المقدار قابل للقسمة بالطبع ، فيمكن قسمة أى مقدار إلى جزءين ، ثم إلى جزئين ، وهكذا دون أن تنتهى القسمة إلى آحاد غير متجزئة ، لأن مثل هذه الآحاد لا يؤلف مقداراً منقسما ؛ وإذن يكون المقدار المحدود المتناهى حاوياً أجزاء حقيقية غير متناهية العدد ، وهذا خلف . — الحجة الثانية تنظر فى الفرض الثانى ، وهو أن الكثرة مكونة من آحاد غير متجزئة . فتقول إن هذه الآحاد متناهية العدد ، لأن الكثرة إن كانت حقيقية كانت معينة ؛ وهذه الآحاد منفصلة ، وإلا اختلط بعضها مع بعض ؛ وهى مفصولة حتما بأوساط ، وهذه الأوساط بأوساط ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، مما يناقض المفروض . فالكثرة بنوعيها غير حقيقية . — والحجة الثالثة تدعى أنه إذا كانت الكثرة حقيقية ، كان كل واحد من آحادها يشغل مكاناً حقيقياً ؛ ولكن هذا المكان يجب أن يكون هو أيضاً فى مكان ، وهكذا إلى غير نهاية . فالكثرة غير حقيقية . — والحجة الرابعة تذهب إلى أنه إذا كانت الكثرة حقيقية وجب أن يقابل النسبة العددية بين كيلة الذرة وحبة الذرة ، وجزء على عشرة آلاف من الحبة ، نفس النسبة بين الأصوات الحادثة من سقوطها إلى الأرض ؛ ولكن الواقع أن لا ، وإذن ليست الكثرة حقيقية .

ج — وله حجج أربع كذلك ضد الحركة : الأولى تسمى حجة القسمة الثنائية ، وهى مأخوذة من فرض المقدار مركباً من أجزاء غير متناهية ، ونقول إن الجسم المتحرك لن يبلغ إلى غايته إلا أن يقطع أولاً نصف المسافة إليها ، ونصف النصف ، وهكذا إلى ما لا نهاية ؛ ولما كان اجتياز اللانهاية ممتنعاً ، كانت الحركة ممتنعة . — والحجة الثانية تمثيل للأولى وتسمى حجة أخيل ، مؤداها أنه إذا فرضنا أخيل « ذا القدمين الخفيفتين » يسابق سلحفاة وهى أبطأ الحيوان ، وأن هذه السلحفاة متقدمة عليه مسافة قصيرة ، وأنهما يبدآن الحركة

---

(١) السماع الطبيعى م ٤ ف ١ و ٢ — م ٦ ف ٢ و ٩ — ما بعد الطبيعة م ٣ ف ٤ .

فى وقت واحد ، فإن أخيل لن يدرك السلحفاة إلا أن يقطع المسافة الأولى الفاصلة بينهما ، ثم المسافة الثانية ، وهكذا إلى ما لا نهاية . — والحجة الثالثة تسمى حجة السهم ، وهى قائمة على أن الزمان مؤلف من آنات غير متجزئة ، وترجع إلى أنه لما كان الشيء فى مكان مساوٍ له ، كان السهم فى صروقه يشغل فى كل آن من آنات الزمان مكاناً مساوياً له ، فهو إذن لا يبارح المكان الذى يشغله فى الآن غير المتجزء ، أى أنه ساكن غير متحرك ، وهكذا فى كل آن . — والحجة الرابعة تسمى حجة الملعب ، وتقوم كذلك على فرض الزمان مؤلفاً من آنات غير متجزئة ، والمكان مركباً من نقط غير منقسمة ، وتلخص كما يلى : لنفرض ثلاثة مجاميع كل منها مؤلف من أربع وحدات أو نقط ، والثلاثة متوازية فى ملعب ، أحدها . . . . ← يشغل نصف الملعب إلى اليمين ، وآخر يشغل نصفه إلى اليسار ، والثالث فى → . . . . الوسط . ولنفرض الأول والثانى يتحركان بسرعة واحدة كل منهما إلى الجهة . . . . المقابلة ، بينما الثالث ساكن فى مكانه : فإن الواحد منهما يقطع طول الآخر فى زمن هو نصف الزمن الذى يقضيه لقطع طول الساكن ، أى أن الانتقال من إحدى نقط المجموع الساكن إلى النقطة التى تليها يتم فى آن هو نصف الآن الذى يتم فيه الانتقال من إحدى نقط المجموع المتحرك إلى النقطة التى تليها ، فتقطع الحركة نفس المسافة (من حيث أن طول المجاميع واحد)فى زمن معين وفى نصف هذا الزمن ، فيكون نصف الزمن مساوياً لنصفه ، وهذا خلف : وإذن فالحركة وهم .

٤ — ولكن زينون يتجاهل أن كل واحد من المجموعين المتحركين يوفر بحركته نصف المسافة على الآخر ، بينما المجموع الساكن يبقيها على حالها ، وأن هذا هو سبب الفرق فى الزمن . كما أنه يتجاهل أن المكان والزمان والحركة أشياء متصلة ، وأنها مع قبولها للقسمة إلى ما لا نهاية ليست مقسمة بالفعل إلى أجزاء غير متناهية . نقول إنه يتجاهل ولا نرميه بالجهل ، لأنه لم يقصد إلى نقد المقدار المتصل — والمقدار عند بارمنيدس خاصية من خواص الوجود — بل إلى نقد المقدار المنفصل كما توهمه الفيثاغوريون ، فجاءت حججه « لهواً جدياً » على حد تعبير أفلاطون[1] . ولكنها جاءت أمراً جديداً فى الفلسفة ؛ فإنه لم يستعمل الجدل عرضاً وطبعاً على ما يتفق لسليقة العقل ، وإنما قصد إليه قصداً ، ووضعه فى صيغة فنية ، فكان أول واضع لعلم الجدل ، وكانت حججه داعية لتحليل معانى الامتداد

(١) فى محاورة « بارمنيدس » ص ١٣٧(ب) .

والزمان والمكان والعدد والحركة واللانهاية عند أفلاطون ، وبالأخص عند أرسطو .

١٨ — مليسوس (٤٤٠ — ؟) :

ا — هو أيونى من ساموس . كان أمير البحر على عمارتها فى انتقاضها على أثينا ، فانتصر على عمارة بركليس . فكان يجمع بين العلم والعمل كمعظم فلاسفة هذا العصر الأول الذين كانوا يفكرون فى الوجود ويشتغلون بالسياسة والاقتصاد . وضع كتاباً « فى الطبيعة أى فى الوجود » دافع فيه عن مذهب بارمنيدس لا ضد الفيثاغوريين كما فعل زينون ، بل ضد مواطنيه الأيونيين . فهو ممثل المذهب الإيلى فى أيونية وآخر رجاله .

ب — وتلخص مناقشته للمذاهب الأيونية القائلة بالكثرة والتغير كما يلى : لو كانت الأشياء وكيفياتها حقيقية على ما تبدو فى الحس ، ولو كان هناك حقاً تراب وماء ونار وذهب وحديد وأبيض وأسود ، لوجب أن يبقى كل منها على حاله بدون تغير ، إذ أن ما يتغير يبطل أن يكون هو هو ، وكيف نصدق أن شيئاً هو بارد بعد أن نكون صدقنا أنه حار ؟ ولو صح التغير لكان معناه أن الوجود ينعدم ، وأن اللاوجود يظهر ، ولكن الطبيعيين أنفسهم يقولون إن شيئاً لا يخرج من لا شىء ، ولا يعود إلى لا شىء ، فقولهم يرتد عليهم ، والمعرفة الحسية التى يعتمدون عليها كاذبة ، فإنها ترينا الوجود كثرة متغيرة ، والحق الواضح فى العقل أن الوجود واحد متجانس ثابت .

ح — ويتلخص برهانه على هذه القضية فى الأقوال الآتية : كل ما يحدث فله مبدأ ، وإذن كل ما لا يحدث ليس له مبدأ . وليس الوجود حادثاً وإلا كان حادثاً من اللاوجود وهذا خلف ؛ وإذن ليس للوجود مبدأ . وما ليس له مبدأ ليس له نهاية ، وإذن ليس للوجود مبدأ ولا نهاية ، فهو لامتناهٍ . واللامتناهى واحد فقط ، إذ يمتنع أن يوجد شىء خارج اللامتناهى . وهو ساكن من حيث إنه لا يوجد مكان خارجه يتحرك إليه . وهو ثابت لأنه إن تغير فقد باين نفسه ولم يعد واحداً . وإذن فالوجود واحد لا متناهٍ ساكن ثابت[1] .

د — وليس فى هذه الأقوال من جديد سوى أن مليسوس يجعل الوجود لا متناهياً ، وكان بارمنيدس قد ذهب إلى أنه متناه . وقد اعتقد مليسوس أن المطلق من حيث الزمان أى القديم مطلق كذلك من حيث المكان أى لا متناهٍ ، فعاد إلى رأى الأيونيين . ولكنه

---

(١) انظر أرسطو : السماع الطبيعى م ١ ف ٣ .

لم يبرهن على صحة الانتقال من المعنى الأول إلى الثانى ، وأخذ لفظ المبدأ على وجهين فغلط أو غالط ، إذ أن ما ليس بحادث وليس له مبدأ زمانى ، قد يكون له مبدأ من حيث القدار أى حد فى المكان . كذلك نراه يخرج من اللاتناهى إلى السكون مع أنه يمكن تصور الوجود اللامتناهى يتحرك فى مكانه[1] . ثم هو يفترق عن بارمنيدس فى نقطة أخرى ؛ هى أنه جرد الوجود من الجسمية الكثيفة ليسلب عنه التجزئة ويصون وحدته ، دون أن يبين كيف يصح ألا ينقسم اللامتناهى فى المكان مهما كان لطيفاً . وهناك فرق آخر يقربه من أكسانوفان ، هو أنه يضيف للوجود حياة عاقلة ، فدل بهذا على ميله إلى وجود روحانى أرق من وجود بارمنيدس . — والآن نظن الوجهات الثلاث التى أشرنا إليها فى مفتتح هذا الباب قد توضحت للقارىء ، فعرف ماهية كل منها ، والفرق بينها ، وتدرجها من المحسوس إلى المعقول .

---

(١) الموضع المذكور .

الفصل الرابع

عود إلى العلم الطبيعي

١٩ — أنبادوقليس (٤٩٠ — ٤٣٠) :

ا — ندرس فى هذا الفصل فلاسفة ثلاثة متعاصرين عادوا إلى معالجة المسألة الطبيعية وهم متأثرون بالإيلية والفيثاغورية . يشتركون فى القول بأن أصل الأشياء كثرة حقيقية ، وأنه لا يوجد تحول من مادة إلى أخرى ، وإنما الأشياء تأليفات مختلفة من أصول ثابتة . ويفترقون فى تصور هذه الأصول ، وطرائق انضمامها وانفصالها . هؤلاء الفلاسفة هم أنكساغوراس وأنبادوقليس وديموقريطس . ولما كان الأول قد تأخر فى نشر آرائه عن الثانى مع أنه أقدم منه[1] وكان من جهة أخرى قد عمر بعده ، وتفلسف فى أثينا ، واستقرت فيها الفلسفة منذ ذلك الحين إلى زمن طويل ، فقد أخرنا الكلام عليه .

ب — نشأ أنبادوقليس فى إغريغنتا ، وكانت من أعظم مدن صقلية عمراناً ، وفى أسرة من أوسع أسر المدينة ثروة ونفوذاً . وكان هو من أنبغ أهل زمانه . اشتهر بالفلسفة والطب والشعر والخطابة ؛ وقال أرسطو إنه منشىء علم البيان . أشبه فيثاغوراس فى كثير من النواحى ، فكان قوى العاطفة الدينية إلى حد ادعاء النبوة بل الألوهية ، واستخدم علمه فى سبيل الخير فصدق الناس دعواه وكانوا يتسابقون إليه أينما حل « يسأله البعض أن يهديهم طريق الصلاح ويطلب إليه آخرون أن يكشف لهم الغيب ، ويتوسل إليه غيرهم أن يسمعهم الكلمة التى تشفى المرض » على حد قوله هو . وزاد فى احترام الناس له وتعلقهم به أنه كان يعطف على الشعب ، ويسعى لتحقيق المساواة ، ويبذل ماله فى الإحسان . فعرضوا عليه أن يتوج ملكا على المدينة ، فأبى وعاون على إقامة الديموقراطية ودافع عنها . ثم شرع يجوب أنحاء صقلية وإيطاليا الجنوبية يؤدى نفس الرسالة . وعبر البحر إلى المورة ، وقضى هناك فيما يرجح .

حـ — لم يحاول رد الأشياء إلى مادة أولى واحدة كما فعل الأيونيون ، ولكنه اعتبر موادهم الثلاثة (الماء والهواء والنار) عناصر وأصولاً ، وزاد عليها التراب ، فكان أول

---

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ا ف ٣ .

من وضع التراب مبدأ ، ولعل نقل التراب هو الذى منع القدماء من اعتباره كذلك . قال إن هذه الأربعة مبادىء على السواء ليس بينها أول ولا ثان ، لا تتكون ولا تفسد ، فلا يخرج بعضها من بعض ، ولا يعود بعضها إلى بعض . لكل منها كيفية خاصة : الحار للنار ، والبارد للهواء ، والرطب للماء ، واليابس للتراب ، فلا تحول بين الكيفيات ، ولكن الأشياء وكيفياتها تحدث بانضمام هذه العناصر وانفصالها بمقادير مختلفة ، على نحو ما يخرج المصور بمزج الألوان صوراً شبيهة بالأشياء الحقيقية . وإنما تجتمع العناصر وتفترق بفعل قوتين كبريين يسميهما المحبة والكراهية[1] : المحبة تضم الذرات المتشابهة عند التفرق ، والكراهية تفصل بينها . ويتغلب كل منهما حيناً فى الدور الواحد من أدوار العالم ، دون أن تستقر الغلبة للمحبة فتسود الوحدة الساكنة ، أو للكراهية فتسود الكثرة المضطربة . فيمر العالم بدور محبة تتخلله الكراهية وتحاول إفساده ، ثم بدور كراهية تتخلله المحبة وتعمل على إصلاحه . فتارة ترجع الكثرة إلى الوحدة . وهى الكرة الأصلية الإلهية تتحد فيها العناصر جميعاً — وطوراً تتفرق الوحدة إلى الكثرة . وتتعاقب الأدوار كل منها كما كان بالتمام إلى ما لا نهاية . والدور الذى نحن فيه الآن تسيطر عليه الكراهية .

٥ — وتتكون الآلهة والنفوس على النحو المتقدم (وهو الوحيد الذى أدخل التراب فى تركيب النفس) . غير أنها أمزجة يغلب فيها الهواء والنار ، لذلك كانت ألطف وأدق . فالآلهة الحقة عنده العناصر والمحبة والكراهية . وكذلك تتكون الأجسام الحية : تجتمع العناصر بمقادير معينة بفعل المحبة « فتنبت فى الأرض رؤوس بدون رقاب ، وتظهر أذرع مفصولة عن الأكتاف ، وعيون مستقلة عن الجباه » وتتقارب هذه الأمزجة اتفاقاً على أنحاء متعددة ، فتكون منها المسوخ ، وتكون المركبات الصالحة للحياة ، فتنقرض الأولى ، وتبقى الأخرى . فالحياة تعلل بأسباب آلية هى اجتماع العناصر وتأثير البيئة . والحياة واحدة فى الأحياء جميعاً ، لا تختلف إلا بالضعف والقوة ، فللنبات شعور كما للحيوان ، ولكنه أضعف . ويفسر الإحساس بأنه تقابل الأشباه وإدراك الشبيه للشبيه : تنبعث عن الأشياء أبخرة لطيفة ، فتلاقى الحواس ، فإن كانت النسبة فى التركيب متفقة فى الجهتين ، دخل البخار المسام وكان الإحساس ، وهذا سبب أن الحاسة الواحدة لا تحس ما هو خاص بأخرى ، ولهذا السبب أدخل أنبادوقليس التراب فى تركيب النفس ، أى لكى تدرك الأشياء الترابية . أما

---

(١) وفى الكتب العربية أيضاً : المحبة والغلبة — والمحبة والعدوان .

الفكر فمركزه عند القلب ، لأن الدم أكمل الأمزجة ، واختلاف الناس عقلا يرجع إلى اختلاف أجزاء الدم فى حجمها وطريقة توزعها وتمازجها . وإنما أخذ أنبادوقليس قوله إن القلب مركز الفكر عن مدرسة الطب فى سقلية ، وقد مر بنا (١٤ — ٩) أن ألقميون إمام مدرسة أقروطونا كان يذهب إلى أن مركز الفكر المخ — والنفوس البشرية آلهة خاطئة ، وقعت فى سلطان الكراهية وقضى عليها أن تهيم ثلاثين ألف سنة بعيدة عن مقر السعداء ، وأن تتقمص على التوالى جميع الصور الفانية . قال أنبادوقليس إنه يذكر حيواته الماضية ، ويعلم أنه فى المرحلة الأخيرة يبلغ بعدها إلى مقامه القديم بعيداً عن الشر والألم — وقد كان فيثاغوراس قد قال مثل ذلك عن نفسه . ووسيلة النجاة التطهير والزهد وتغليب العقل على الحواس ، فإن الحواس كثرة وشقاق ، تخدعنا بأمور زائلة ، والعقل وحدة ومحبة ، والغاية القصوى العودة إلى المحبة والوحدة .

هـ — ولسنا ندرى كيف تتفق هذه الغاية مع الدور (١٣ — جـ) ولا كيف تكون العناصر فى وقت ما — مع تباينها تبايناً جوهرياً — كرة متجانسة ، ثم تفصلها الكراهية مبادىء متباينة ، ثم تضمها المحبة فى كرة متجانسة . ولسنا ندرى ماهية المحبة والكراهية : أنتصورهما قوتين روحيتين ، فنسميهما الخير والشر ، أم قوتين طبيعيتين ، فنسميهما التجاذب والتنافر ؟ الفرض الأول يؤيده أن المحبة فى رأى أنبادوقليس علة النظام والخير والجمال البادية فى العالم ، والكراهية علة الاضطراب والشر والقبح[1] ؛ والعلة التى من النوع الأول على الأقل عاقلة بالضرورة ، ولكنه فى تفسيره أصل الأحياء يصور المحبة تفعل فعلا آلياً ، والأحياء تتألف اتفاقاً ، بحيث يترجح الفرض الثانى . ونحن على كل حال بإزاء مذهب يعد مزاجاً من المذاهب السابقة ومحاولة للملاءمة بينها . فقد عنى بالعلم الطبيعى على طريقة الأيونيين ، ولم يؤثر مادة على أخرى ، بل جمع بين المواد الأربع ؛ إلا أنه خطا خطوة إلى الأمام بفصله العلة عن المادة ولو فى التصور ؛ ووضعها مستقلة باسم المحبة أو الكراهية . وقد أخذ عن الفيثاغوريين التطهير والتناسخ والدور ، وفكرة أن الأشياء مركبات بمقادير معينة أى بنسب عددية . وتابع بارمنيدس فى القول بالكرة الأصلية ، وفى إنكار بعض التغير وهو التغير الكيفى ، فتصور حقائق الأشياء أصولا ثابتة الماهية ، وتصور التغير تنقل هذه الأصول .

---

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ١ ف ٤ .

٣٠ — ديموقريطس (٤٧٠ — ٣٦١) :

ا — ولد فى أبديرا من أعمال تراقية ، وكانت مدينة غنية ، بناها فريق من الأيونيين بالقرب من مناجم ذهب . وقد ذكر عن نفسه « أن أحداً من أهل زمانه لم يقم بمثل ما قام به من رحلات ، ولم ير مثل ما رأى من بلدان ، ولم يستمع إلى مثل ما استمع إليه من أقوال العلماء ، ولم يتفوق عليه فى علم الهندسة ، حتى ولا المهندسون المصريون » . وفى مقدمة الذين استفاد بعلمهم رجل اسمه لوقيبوس ، يرجح أنه ولد فى ملطية ، ورحل إلى إيليا وأخذ عن زينون ، ثم جاء أبديرا وأنشأ فيها مدرسة . وهذا كل ما نعرف عنه ، لذلك لا يفرد له مكان فى تاريخ الفلسفة . وأرسطو نفسه يقرن اسمه دائماً باسم ديموقريطس تلميذه وصديقه ، ويضيف إليهما مذهباً واحداً . وعُرف هذا المذهب فى القديم من كتب ديموقريطس ، وكانت تؤلف موسوعة كبرى فى أسلوب تعليمى ، تناولت أصناف العلوم والفنون (الأخلاق والطبيعة والنفس والطب والنبات والحيوان والرياضيات والفلك والموسيقى والجغرافيا والزراعة والصنائع) ولم يبق لنا منها سوى شذرات متفرقة .

ب — ويلوح أن أصل المذهب محاولة التوفيق بين الأيلية والتجربة ، وأن لوقيبوس وديموقريطس كانا مقتنعين من جهة بقول الأيليين إن الوجود كله ملاء ، وإن الحركة ممتنعة بدون خلاء ، والخلاء لاوجود ؛ ومن جهة أخرى بأن الكثرة والحركة ظاهرتان لا تنكران . ودلتهما التجربة على وجود ذرات مادية غاية فى الدقة ، كالتى تتطاير فى أشعة الشمس ، وكالذرات الملوِّنة التى تذوب فى الماء ، والذرات الرائحية التى تتصاعد مع الدخان أو الهواء . ودلتهما التجربة أيضاً على أن اللبن والخشب يرشح منهما الزيت والماء ، وأن الضوء يخترق الأجسام الشفافة ، وأن الحرارة تخترق جميع الأجسام تقريباً . فبدا لهما أن فى كل جسم مسام خالية يستطيع جسم آخر أن ينفذ منها . وكانت طريقتهما فى التوفيق أن قسما الوجود الواحد المتجانس عند الإيليين ، إلى عدد غير متناه من الوحدات المتجانسة غير المنقسمة غير المحسوسة لتناهيها فى الدقة ، ووضعاها فى خلاء غير متناه تتحرك فيه ، فتتلاقى وتفترق ، فتحدث بتلاقيها وافتراقها الكون والفساد . وقالا إنها قديمة من حيث إن الوجود لا يخرج من اللاوجود ؛ وأنها دائمة من حيث إن الوجود لا ينتهى إلى اللاوجود ؛ وأنها متحركة بذاتها . وواحدها الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزأ ، فإنها جميعاً امتداد فحسب ، أو ملاء غير منقسم . فهى متشابهة بالطبيعة تمام التشابه ، وليست لها أية كيفية ، ولا تمايز بغير خاصيتين

لازمتين من معنى الامتداد ، وهما الشكل والمقدار : أما الشكل فمثل Λ و N ومنها المستدير والمجوف والمحدب والأملس والخشن إلى غير ذلك ؛ وأما المقدار فيتفاوت مع إبائه القسمة ، وخلوه عن الثقل . كذلك يتميز الخلاء الفاصل بينها بالمقدار والشكل . وليس الخلاء عدماً ، ولكنه امتداد متصل متجانس ، يفترق عن الملاء بخلوه من الجسم والمقاومة . ويسمى لوقيبوس وديموقريطس الملاء وجوداً ، والخلاء لا وجوداً ، ويعتبرانهما علتين ماديتين على السواء[1] : ذلك أنهما ظنا أنه لولا الخلاء لما تمايزت الجواهر ولما كانت الكثرة ، ولامتنعت الحركة ، وأن القول بالحركة والكثرة يقتضى حتما القول بالخلاء ، واعتباره مبدأ حقيقياً إلى جانب الملاء .

ح — وتفصيل القول فى كون الأشياء وفسادها أن الحركة تعصف بالجواهر منذ القدم ، وتوجهها إلى كل صوب فى الخلاء الواسع ، فتتقابل على أنحاء لا تحصى ، وتتشابك بنتوآتها وتتألف فى مجاميع هى الموجودات . وإنما تختلف الموجودات باختلاف الجواهر المؤلفة لها شكلا ومقداراً ، ثم باختلاف الجواهر المتشابهة الشكل ترتيباً ووضعاً بعضها من بعض : الترتيب مثل N Λ و Λ N ، والوضع مثل Ξ و H أو Z و N[2] بحيث يمكن القول أن الأشياء هندسة وعدد . ولما تتكون المجاميع تكتسب الثقل والخفة ، فالأثقل هو الأكبر حجماً والأقل خلاء ، يستقر بسهولة فى المركز ، ويتحرك ببطء ؛ والأخف هو الأصغر حجماً والأكثر خلاء ، ينتشر بسهولة نحو محيط المجموع ، سواء أكان هذا المجموع عالماً أو شيئاً جزئياً فى العالم الواحد . وتكتسب سائر الكيفيات المحسوسة ، من لون وطعم وحرارة وغيرها ، فإن هذه الكيفيات تابعة من ناحية لتركيب الأشياء ومسافتها منا ووضعها ، ومن ناحية أخرى لتركيب الأشخاص وتغيرهم من حال إلى حال ، والشواهد كثيرة[3] . لذلك يقول ديموقريطس إنها « اصطلاح » أى نسبة حادثة بين الجواهر فى الأشياء وفى الحواس ، وأنها موضوع معرفة غامضة . أما الجواهر والخلاء فإنها موجودة حقاً ، وهى الموضوع الوحيد للمعرفة الحقة .

ى — والنفس مادية طبعاً ، مؤلفة من أدق الجواهر وأسرعها حركة ، من حيث أن النفس مبدأ الحركة فى الأجسام الحية . ومثل هذه الجواهر هى المستديرة التى تؤلف النار

---

(١) أرسطو : مابعد الطبيعة م ١ ف ٤ ؛ وكتاب الكون والفساد م ١ ف ٨

(٢) أرسطو : ما بعد الطبيعة : الموضع المتقدم

(٣) انظر أرسطو : الكون والفساد م ١ ف ٢

ألطف المركبات وأكثرها تحركا . فالنفس جسم ناري . وهذه الجواهر منتشرة في الهواء ، يدفعها إلى الأجسام ، فتتغلغل في البدن كله ، وتتجدد بالتنفس في كل آن . وما دام التنفس دامت الحياة والحركة[1] . وهي أوفر عدداً في مراكز الإحساس والفكر ، أي في أعضاء الحواس والقلب والكبد والمخ ، فإنها تكتسب الحساسية إذا توافرت . وما دامت حاصلة كلها في البدن دام الشعور ، فإذا ما فقد بعضها كان النوم واللاشعور ، وإذا فقد معظمها كان الموت الظاهر ، وإذا فقدت جميعاً كان الموت الحقيق أي فناء الشخص . وتحقيق الإدراك الحسي أن بخارات لطيفة تنحلل من الأجسام في كل وقت محتفظة بخصائص الجسم المتحللة منه ، فهي صور وأشباه تفعل في الهواء المتوسط بين الشيء والحاسة فعل الخاتم أو الطابع في الشمع ، وتتغلغل في مسام الحواس فتدرك . وإنما يختلف انفعالنا بها لاختلاف الجواهر المؤلفة للأجسام ، فالخشنة منها تؤلف الأجسام الحامضة والمرة ، بينما الملساء تؤلف الأجسام الحلوة ، وهكذا . وأما الفكر فما هو إلا الحركة الباطنة التي تحدثها الإحساسات في المخ ، أو هو الصورة المحسوسة ملطفة ، فإن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة . — فلم نخرج عن المادة . وإذن فليس للإنسان أن يرجو خلوداً ، وإنما سعادته في طمأنينة النفس وخلوها من الخرافات والمخاوف . وتتحقق هذه الطمأنينة بالعلم بقانون الوجود والتسليم له ، والتمييز بين اللذات ، والتزام الحد الملائم فيها ، فإن تجاوز الحد يجر الألم .

هـ — فديموقريطس مضى بالمذهب الآلي إلى حده الأقصى ، ووضعه في صيغته النهائية ، فقال إن كل شيء امتداد وحركة فحسب ، ولم يستثن النفس الإنسانية كما رأينا ، ولم يستثن الآلهة : فذهب إلى أنهم مركبون من جواهر كالبشر ، إلا أن تركيبهم أدق ، فهم لذلك أحكم وأقدر وأطول عمراً بكثير . ولكنهم لا يخلدون ، فإنهم خاضعون للقانون العام ، أي للفساد بعد الكون واستئناف الدور على حسب ضرورة مطلقة ناشئة من « المقاومة والحركة والتصادم » دون أية غائية أو علة خارجة عن الجواهر ، مثل المحبة والكراهية ، ودون أية علة باطنة مثل التكاثف والتخلخل ، ودون أية كيفية . فالمذهب غاية في البساطة ، ولكنه حافل بالصعوبات : فما هذه الضرورة التي يزعمها ديموقريطس لاجتماع الجواهر وافتراقها على نظام مطرد وأنواع ثابتة ؟ أليس الأصح أن عالمه عالم اتفاق ومصادفة ؟ بل ما هي علة الحركة ، منتظمة كانت أم مضطربة ؟ ونحن نفهم أن الثقل غير لازم بالذات من الكمية ، ولكن سلبه عن الجواهر يسلب عنها الحركة ، فتبقى في سكون مطلق . ثم كيف تتفاوت الجواهر بالمقدار

(١) أرسطو : كتاب النفس م ١ ف ٢

وتتفق فى عدم الانقسام ؟ بل كيف يمكن أن يكون عدم الانقسام خاصية أصلية للجوهر ، والجوهر امتداد بحت خلو من كل مبدأ يرده للوحدة ؟ وما هو الخلاء ؟ وكيف يوجد امتداد غير مقاوم ؟ وديموقريطس يعتبر المعرفة الحسية نسبية ، ، ويقول إن المعرفة الحقة فى العقل ، ولكنه يجعل العقل صدى الحس ، ولا يفسر كيف يرتفع العقل فوق الحس ويدرك اللامحسوسات ، مثل الجواهر والخلاء ، وكيف يتفق الإحساس والعقل للطبيعة المادية بما هى مادية ؟

٣١ — انكساغوراس (٥٠٠ — ٤٢٨) :

ا — ولد فى أقلازومين بالقرب من أزمير من أعمال أيونية ، فى أسرة شريفة . وتلقى العلم فى مدرسة انكسيمانس على ما يرجح . ولما ناهز الأربعين نزح إلى أثينا ، وكانت قد بلغت مكانة عالية بعد انتصارها على الفرس وصد غارتهم عن العالم اليونانى ، وكان بركليس يستقدم إليها الأدباء والعلماء ليجعل منها مركز اليونان فى الثقافة والسياسة على السواء . فلما دخلها انكساغوراس دخلت معه الفلسفة لأول مرة . أقام فيها ثلاثين سنة ، كان فى خلالها قطب الحركة الفكرية . ولما آذن نجم بركليس صديقه وولى نعمته بالأفول ، أصبح هدفاً لكيد الخصوم السياسيين ، واتهموه بالإلحاد آملين أن ينالوا من الرجلين جميعاً ، واستشهدوا بما كان قد ذهب إليه من أن القمر أرض فيها جبال ووديان ؛ وأن الشمس والكواكب أجرام ملتهبة لا تختلف طبيعتها عن طبيعة الأجسام الأرضية ، كما يتبين من مقابلة الأحجار المتساقطة من السماء بما عندنا من أحجار . ولم يكن الأثينيون يطيقون مثل هذا القول لاعتقادهم أن كل ما هو سماوى فهو إلهى . فاضطر لمغادرة المدينة وعاد إلى آسيا الصغرى ومات فيها

ب — وهو يعتقد أن الأشياء متباينة فى الحقيقة كما تبدو لنا ، وأن قسمة الأجسام ، بالغة ما بلغت ، تنتهى دائماً إلى أجزاء مجانسة للكل : تنتهى إلى لحم فى اللحم ، وإلى عظم فى العظم ، فلا تلاشى القسمة أبداً طبيعة الشىء المقسم . وعلى ذلك فلا ترد الأشياء إلى مادة واحدة ، أو إلى بضع مواد معينة ، ومن باب أولى إلى تنوع الكمية والحركة . على أن الذى حدا بالطبيعيين إلى مواقفهم هو المشاهد من تحول الأشياء بعضها إلى بعض ، وضرورة تفسير هذا التحول ؛ وانكساغوراس يعلم ذلك ، يعلم مثلا أن الخبز الذى نأكله ، والماء الذى نشربه ، ينميان جميع أجزاء البدن على السواء من دم ولحم وعظم وشعر وظفر الخ ، ولكنه يأبى

أن يتابعهم ، وإنما يقول : إذا كان الوجود لا يخرج من اللاوجود — باتفاقهم جميعاً — « فكيف يخرج الشعر من اللاشعر ، واللحم مما ليس لحما ؟ » أمامنا ثلاث قضايا كبرى : الواحدة أن الأشياء متباينة بالذات — والثانية أن لا يخرج الوجود من اللاوجود — والثالثة أن الكل يتولد من الكل (أو أن أى شىء يتولد من أى شىء) . فإذا أردنا الاستمساك بها جميعاً ، قلنا إن الأشياء موجودة بعضها فى بعض على ما هى ، وأن الكل فى الكل أى أن الوجود مكون من مبادئ لامتناهية عدداً وصغراً هى طبائع أو جواهر مكيفة فى أنفسها ، تجتمع فى كل جسم بمقادير متفاوتة ، فيتحقق بهذا التفاوت الكون والفساد ، ويتعين لكل جسم نوعه بالطبيعة الغالبة فيه ، بحيث يكون كل جسم عالماً لامتناهياً يحوى الطبائع على اختلافها كلا منها بمقدار ، فتختلف الظواهر والأسماء . وإذن فالماء والخبز يحويان مبادئ لامتناهية فى الصغر عظمية ولحمية ودموية . . . بل إن المبادئ جميعاً تلتقى فى كل ذرة تقع تحت الحس ، فلا يوجد جسم محسوس هو متجانس مهما دق ، بل المتجانس الطبائع الأولى . لذلك سماها بالمتجانسات (« متشابهة الأجزاء » عند الشهرستانى) وهى أدق من أن ينالها الحس ، ولا يوجد كلٌّ هو أبيض خالص ، أو أسود أو حلو أو لحم أو عظم ، ولكن ما يغلب فى الشىء هو ما يلوح أنه طبيعته ، فيعرف به ويتميز عما عداه . فالكون والفساد استحالة شىء إلى شىء بأن يزيد بعض الطبائع فيظهر للحواس ، أو ينقص فيخفى عليها ويظهر غيره . وبعبارة أخرى « الكون ظهور عن كمون » (الشهرستانى) والفساد كمون بعد ظهور ، دون أى تغير فى الكيفية [1] .

حـ — والطبائع قديمة . ولكنها ليست متحركة بذاتها ، وليس لها ما يجعلها تنتظم من تلقاء نفسها . كانت فى الأصل مختلطة أشد اختلاط ، وكان هذا المزاج الأول متساوياً غاية التساوى ، لا يتميز فيه شىء من شىء على ما ارتأى انكسيمندريس حين وضع اللامتناهى . ثم حدثت بفعل فاعل الحركة التى ميزتها ونظمتها . وليس هذا الفاعل الاتفاق ، فما الاتفاق إلا لفظ نستر به عجزنا عن اكتشاف العلة ؛ وليس هذا الفاعل القدر ، فما القدر إلا لفظ أجوف اخترعه الشعراء . إنما الفاعل العقل « ألطف الأشياء وأصفاها ، بسيط مفارق للطبائع كلها ، إذ لو كان ممتزجاً بشىء آخر أيا كان لشابه سائر الأشياء ، ولما استطاع وهو ممتزج أن يفعل بنفس القدرة التى يفعل بها وهو خالص ، عليم بكل شىء ، قدير على كل شىء ، متحرك

---

(١) أرسطو : السماع الطبيعى م ١ ف ٤ كله . — الكون والفساد م ١ ف ١ — ما بعد الطبيعة م ١ ف ٣ .

بذاته » حرك المزاج الأول فى إحدى نقطه ، فامتدت الحركة واتسعت فى دوائر متتابعة حتى عمت الكل . وانفصلت الأجرام السماوية عن المركز (الأرض) بالحركة الأولى ، وترتبت الأشياء كل فى مكانه ؛ الخفيف إلى أعلى ، والثقيل إلى أسفل . وستظل الأجرام السماوية مستقلة حتى تنفد القوة التى تستبقيها فى مداراتها فتعود إلى المركز . أما الأجسام الحية فقد أتتها الحياة بمشاركة العقل ، والعقل نفس تصدر عنها نفوس .

٥ — ولسنا نناقش أنكساغوراس فيما يثير مذهبه من إشكالات أهمها وضعه عدداً لا متناهياً من الطبائع فى الجسم المتناهى . ونقتصر على ملاحظة أنه يفسر الكون تفسيراً آليا مثل من تقدم من الطبيعيين[1] حتى إنه يعلل رقى الحيوان على النبات بأنه طليق غير مرتبط بالأرض ، ورقى الإنسان على الحيوان بأن له يدين ، وأن اليد خير الآلات ونموذجها دون أن يضيف أى أثر للعقل الذى قال به علة محركة منظمة ، بحيث يمكن وصف مذهبه بأنه « آلية كيفية » . الحق أنه لم يفطن لخصب هذه الفكرة ، ولم يوفق إلى استغلالها ، ولكنها فكرة جليلة كافية لأن تجعل له مكاناً خاصاً فى هذا الدور من الفلسفة . قال بها « فبدا كأنه الوحيد الذى احتفظ برشده بإزاء هذيان أسلافه »[2] ؛ واهتزت لها نفس أفلاطون وانبعثت إلى تفكير بعيد المدى[3] . وإذا أضفنا إليها تصور الوجود طبائع وماهيات ، أى أشياء عقلية ومعقولة ؛ عددنا أنكساغوراس فى طليعة الحركة السقراطية والفلسفة الروحية .

---

(١) أفلاطون : فيدون ص ٩٨ — ٩٩ . أرسطو : ما بعد الطبيعة م ١ ف ٤ — وانظر فيما بعد عدد ٣٩ .

(٢) أرسطو مابعد الطبيعة م ١ ف ٣ .

(٣) فيدون : ص ٩٧ وما بعدها .